وجوه من الشرق

رابندرانات طاغور

الرحّالة والمواطن العالمي

بقلم ميشال حايك

« انسان انا وكل ما هو انساني ليس بغريب عني »
(تيرانس)

« عندما اموت قل للملكة الارض الجميلة انني
احببتها اكثر مما اجترأت على ان ابوح ... »
(جورج برنانوس)

« كلا لن تستطيع ان تجعل البرعم ينفتق
هزّه واضغطْ عليه ، فلن تستطيع ان تفتحه !
قد تحطمه يداك وقد تهشم بتلاته وتذرها بين الغبار
ولكن اللون لن يجري به ولن يفشي العبير !
اواه ! انك لن تستطيع ان تصبّرهُ زهرة ...
اما الذي يفتح الزهرة فيعمل ببساطة !
يلقي عليها نظرةً فيمشي النُسغ في اعصابها مترعًا ،
وعلى انفاسه تفتح جناحيها وتتأرجح بين أكف النسيم ؛
ينبض اللون خافقًا كانه شهوةٌ من فؤاد
ويسري عبيرها كانه بوح بسر هوى ...
ان الذي يفتح الزهرة ، يعمل بكل بساطة ! »(١)

اول ما قرأت لطاغور كانت هذه الابيات . ومنذ تلك الآونة بدأت البحث عنه كأني افتش عن وجه بعيد عرفت ملامحه من زمان ونسيتها مع الزمان . واية غرابةٍ في ان يتحسس ابن الشرق بنفحةٍ من عبير شرقه فيتتبع

(١) سلة ثمار : النشيد الثامن عشر .

العبير حتى يصل الى الزهرة التي تملأ بعطورها الآفاق ؟ وطاغور هو تلك الزهرة التي اكتشفتها ، بلل حواشيها ندى الشرق ، واستفاقت صباح يوم تحت جذع شجرة في الهند مثقلة بالاثمار ، والارض حولها تخطر بابهى الحلى كانها في عرس ، وفي الجو اغاني عيد ونشوة طرب ، والحياة صبية يجن من مرها الوجود ، كانها ڤينوس التي وصفها « لوكرس » في مطلع نشيده « الاشياء »[1] « مرفرفة الجناح فوق قلوب الخلائق ، فاذا في كل قلب وكل مهجة رغبات تتدافع وثورات فتية تتغنى بطيرة صاخبة لاجة » .

وطالعت من طاغور ، وشبح الحرب يترصد على ابواب البشر ويلقي على صدر كل حي حملاً من الاسى ، فعشت آمالي وايقنت من ان زيغان العالم ليس غير نوع من البحث عن الحقيقة ، وان ظلماته نوع من العطش المضنك الى النور ، فصدقت اذ ذاك كلمة قالها احد كتاب فرنسة ، وقد ذهب ضحية الحرب ، حينما هتف : « عندما يمشي الاعمى نحو النور ، يكون قد وجد النور[2] . »

لا شك في ان الذين قرأوا طاغور احسوا بذات الشعور وذات الغبطة وذات الامل : شيء من الهدوء يحل في ترارة النفس ، والوان وورود مزهرة امام العيون المبتلة ، وصحو بعد عزيف شتاءات ، وتقشيع زرقة في كبد آفاق مضرجة بالدم الاسود .

وهذه الثقة بخلاص العالم النباتي رافقت طاغور كل حياته — لقد وثق بمحبة الله للارض ، ووثق بالطبيعة ، ووثق بطبيعة الانسان ولم ييأس ، بينما العالم مرجل تغلي باليأس لتطعمه ابناءها ، من ان القيم لن تهلك ولو هلك الناس . حربان عالميتان ، قدمت كل امة في الارض لقمة لسعيرهما ، ما اضعفتا ثقته ، فما انهار بل وما وهى ركن الآمال في نفسه .

وما ذاك الا لان نفس طاغور هادئة متفائلة دائماً ترقب الخير كل حين ولو طال بحثه ، وتعرف ذاتها انها ترنيمة في فم الطبيعة ، وتعرف الطبيعة ترنيمة في فم الله ؛ ولذلك فانها تعرف ان النظام ازلي واذا افسدته الارادات الطائلة السوء ، فالى حين وسيعود مستقراً الى الابد .

1) Lucrèce ; *De Natura Rerum* : I
2) Antoine de Saint-Exupéry : *Lettre à un Otage*.

اخلاقه

شاهدت مَن لمس بكفّه كفّ طاغور وكلمني بحرارة عن تلك الحرارة والرعشة التي سرت في جسمه من ملمس ذلك الرجل العظيم .

وُلد للقيادة في مظاهر يوحي الاحترام والثقة والنعومة في الوقت الواحد . قامته الكبيرة الجميلة ، صوته الحلو ، بسمته العذبة ، ضحكته الصريحة العريضة ، هيئته المهيبة كانت تترك على محياه مسحةً من القداسة يخشع دونها الناظرون اليه . لم يكن طاغور من اولئك الشعراء الذين تتعبر عليهم الايام فتزيد في مرض روحهم عللًا في الاجسام ، اما هو فقد كان لا علة فيه ، فما احس طول حياته كما قيل بالم في الرأس بالرغم من الجهود الجبّارة التي بذلها . وهذه الصحة العقلية والجسمية وضعها طاغور في خدمة مثله الاعلى : خدمة الانسان في العالم . فلا يستريح نهاره مطلقاً بل ينتقل من عمل الى آخر بحماس وغيرة واندفاع ، يعلّم تلاميذ ، ويكتب قصائد وروايات ، ويوقّع تلاحين ، ويدرس ساعات متواليات ، ويقرأ الرسائل العديدة التي لم يهمل يوماً الاجابة على واحدة منها ، ويستقبل الزائرين من كل البلدان ؛ فكم من قصيدة او رواية او اغنية قوطع الالهام فيها عليه فأهملت ودُفن شيء من النور في اكفان العدم . يجادل في كل مشكلة ، علمية او فنية ، ويشرف على الصلاة او يعظ في الاجتماعات مرشداً الى الصلاح ، او يدرّب تلاميذه على رواية اعدّها ، او يرأس حفلة ادبية او فلسفية او موسيقية . وفي كل ذلك كان هادئاً يساير الحياة ولا تسيّره الحياة ، يعيش يومه ولا يضغط على يومه ولا يظهر امام الناس بمظهر المسرع الكثير الهموم ، بل كان في حضوره فيضاً من الراحة والطمأنينة ، ينصرف الى عمله الحاضر دون لفتة موجعة الى ما فات ، او خشية مما سيأتي .

لقد حفظ طاغور كل عاداته كل حياته وما اقلع عن واحدة منها لعلمه ان كل ما تهب الطبيعة خير وجمال . فكان دائماً ذلك المغني الموسيقار الجميل الصوت ، وذلك الراقص الرشيق النقلات ، وذلك الرياضي الماهر الذي كم قطع نهر « الغانج » سابحاً وكم قام برحلة شاقة بين الجبال الوعرة لا يستعين بغير عصاه . وما كانت المناخات الاوربية بقساوتها لتردعه عن عاداته ؛ ينهض قبل

الفجر ويروّض جسمه باعمال متعبة يستحم بعدها في الماء البارد ويبدأ بالتأمل المعتاد ، ثم ينصرف الى الكتابة والتأليف والتعليم والارشاد . وعند الماء قرب غياب الشمس كان يدرس اللغة السنسكريتية وعلم النجوم الى ساعات متأخرة في الليل . وكم من عمل وجهد بين شروق شمسه وغروبها .

طاغور كان بعيداً عن ذلك المتصوف اللاواعي الذي نتصوره عالماً ، بل كان عاملاً نشيطاً عصبياً يحمل الالم بصبر ويرى الحياة بواقعها فيقبلها عالماً انها جميلة رغم المتاعب ، وهكذا يصبر على متاعبها. في ليلة من الليالي العواصف، نهض من فراشه ليوصد شباكه فانطبق الشباك على اصبعه فانتُزع ظفره وجُرح جرحاً بليغاً ولكنه لم يشأ ان يزعج احداً بل سهر طول الليل يداوي بالتأمل والفرح الداخلي آلامه المرة . وفي الصباح لم يمنعه الضماد الثقيل عن الكتابة ولا يزال تلاميذه يحفظون تلك الصفحات الضخمة الاسطر التي خطّتها يمناه المجروحة.

هذا يدلّنا على ان طاغور لم يهمل يوماً واحداً رسالته ، رسالة الشاعر المتطلّبة المرهقة . لقد كان الالهام يتبعه دائماً ، وكان يكفيه ان يخلو قليلاً بنفسه لتطلع في خاوته دنيا من السحر تعبق بشميم الجمال وعطر انفاسه . فكأنما وبة الشعر على ميعادٍ معه متواصل لا يخلو قليلاً الّا وتأتيه بجوّ من ضباب يتوضح فيه رسوم الجمال ويسمع منه عزف موسيقى سحرية . فما انبتّ في تيثارته وترٌ ابداً ، فهي دائماً محكمة في انتظار ويكفيه ان يلامسها بطرف اصبع لينبجس منها سيل دفّاق من النغمات .

من المؤسف الموجع ان يجهل الكثيرون هذا الوجه الشرقي ، اوضح وجوه الشرق وألمعها تقاطيع . ومن عرفه شوّه جماله بغير الحقيقة والواقع . منهم من جعلوا طاغور متصوفاً حالماً يقضي لياليه في سمر مع النجوم ونهاراته في عزلة بين الجبال . لقد كان اجل متصوفاً ولكن واعياً ينظر الى الحياة نظرة حقيقية فيراها كما هي ، ثم يجمّل الحياة بغنًى من جمال نفسه : وهنا سرّ معنويته وتفرّد عبقريته . لقد كان من عصره ، لا قبل ولا بعد ، بسيطاً في القول والعمل وطريقة العيش ، كأنه عاديٌّ من الناس. ولكنه كان فوق العاديين من الناس. هو من الافراد القلائل الذين يطبعون اجيالهم بسمة خاصة يعلق بها شيء من

م . نفوسهم المهووسة بالانوار. هو من الافراد اعظام الذين عرفوا ان يكتشفوا في ترافه الحياة المادية المتسقة اعجوبةً جديدة في كل يوم جديد . اذا كان في مطلع شبابه آثر الخلوة على الاندماج بين الناس فما كان ذلك الا اختزاناً لقوى روحية سيكرسها لخدمة القاطنين معه دروب الزمان . لقد قيل في الشاعر الفرنسي الذاهل : « ماذا كان صنع لافونتين لو لم يسمح له اولاً بان لا يعمل شيئاً . » اما طاغور فعزلته كانت تأملاً (هل التأمل بطالة ؟) ، تأملاً بجراحات البشرية وبالدواء الذي يعزم على تقديمه لها . واذا بطاغور يقترب من الناس يوماً عن يوم فيتكئ معهم على مساند الافراح والاحزان ويعبّر عنها وعن كل مشكلة ومعضلة تتخبط بها بلاده او تثقل على تفكير العالم :

« لا ابغي الموت في هذا العالم الجميل .
بل احب العيش بين ظهراني البشر
فافسحوا لي مجال العيش في نور الشمس
في هذه الحديقة الزاهرة ، بين القلوب النابضة . . .
دعوني ابني دار خلود بقصائد انسجها
من اناشيد الناس في افراحهم واحزانهم . . . »

كل ما له علاقة بالانسان لم يكن غريباً عن طاغور ، وقد تقضت حياته في اكتشاف ذاته واحداً من الكون يمشي في ركاب الاجيال وتمشي حياة الانسانية فيه :

« ان الحياة المندفقة ، الزاخرة في عروقي نهاراً وليلاً ، هي نفسها تزخر في الكون نابضةً ، موزونة ، راقصة ،
وهي نفسها تتماوج مدّاً وجزراً في اليم ، مهد الولادة والموت .
انه مجدٌ لاعضائي ان الامس عالم الحياة هذا ، وانه مجد لدمي ان ترقص فيه ، هذه الساعة ، حياة خفقت بها الاجيال(١) . »

هذا التآخي مع كل ما في الوجود ، هذه العلاقات الانسانية الاساسية الحية جعلت من طاغور انساناً عالمياً واسع الفكر والقلب « لا يغلق بابه بوجه

(١) قربان الاغاني ، النشيد : ٦٩.

احد » كما يقول ، ولا بوجه فنٍ من الفنون . في الموسيقى والتصوير والشعر والفلسفة كانت له رنات ورنات ورعشات وآراء صائبة . نبوغه العالمي ادهش العالم وبدهشه . فكل موجةٍ ونزعةٍ وخفقةٍ مرّت بالانسان ، فتح طاغور لها قلبه ، فما تعصب لدين على دين وعادى علماً من العلوم ولا حصر همه بفن من الفنون او حقيقةٍ من الحقائق ، ولقد قال مرةً : « اذا اوصدتَ بابك بوجه كل الضلالات بقيت الحقيقة خارجاً . »

لقد كان طاغور قيثارةً مشدودةً الى غصن شجرة كلما مرّت نسمةٌ حنّ فيها وتر وانفلتت نغمات .

وهذه السهولة وهذا النبوغ في كل الفنون قد يشرحها ، اذا صحّ ان النبوغ يتأثر بظروف عارضة ، ميراث طاغور العائلي : فهو قد ولد في عائلة يحمل اعضائها مغنون وشعراء ومصوّرون .

حياته :

سنة ١٨٦١ ، يوم الاثنين في السادس من شهر ايار ، في «جورورسنكو» قصر الجدود ، في قلب مدينة كلكوتا ، شاهد طاغور الشمس لاول مرة . وسمّاه ابوه « رابيندرا » اي الشمس قائلًا : « ان هذا الطفل سينير العالم يوماً . »

كانت عائلة طاغور ذات مجدٍ وشهرة وجاه وعدد فجدّه الامير «دوراكانات» كان « ميسين » عصره يناصر الآداب والفنون ويدافع عن اصحابها ، وابوه « دافندرانات » لعب دورًا عظيماً في تاريخ بنغاليا الديني وحمل اسم « مهاراج» اي القديس .

ورابيندرانات كان اصغر اخوته الثمانية الذين سوف يصبح اكثرهم فيما بعد شعراء وفنانين وموسيقيين تذيع الهند اسمهم . وواحدةٌ من اخواته كانت اول امرأةٍ كاتبةٍ في اللغة البنغالية ، ألّفت عددًا كبيرًا من القصص والدراسات . فكأنما ربة الشعر والعلم والسعادة حلّت في ذلك البيت وهيّأت مكاناً يليق بمن سيصبح عن قريب مطرب العالم ومفيق آمال البشرية في برهات بؤسها ويأسها . وما تحركت رجلاه للمشي وتحرك لسانه الا وسأله اهله ان يقول شعرًا .

نشأ الفتى رابيندرانات في ذلك الجوّ العائلي الغني روحاً ونسباً وثروةً ،

ولم يندمج بباقي الاطفال ليمزق ثيابه بين الادغال ويهشم جسمه الندي على الصخور والاشواك ، ذاك ان عائلته ارادت ان تعنى بتثقيفه كل الاعتناء . فأرسل الى المدرسة ، ولكن الفتى لم يكن من الذين يستطيعون الخضوع لنظام المدرسة الصارم ، فنزعته الشديدة الى الحرية ، واحساسه الشديد التأثر ، وافكاره الحيرى المتشردة لم تكن اتساعفه في الانكباب المجهد على الدرس فكان تلميذاً طائشاً . فاخذ ابوه على نفسه تعليمه واحضر له معلمين ليدرسوه السنسكريتية والانكليزية .

كان رابندرانات في الثانية عشرة من عمره عندما ذهب الى سانتي نيكاتان Shanti Nikeian (موطن السلام) ، وهي بيت للخلوة والتأمل اسسه ابوه ، وذهب بعد ذلك الى جبال حملايا . وهناك اخذت تلك النفس الفتية الرحبية تنظر رحيباً الى العالم من اعلى قاته . وعاد من رحلته الى كلكوتا مدهوشاً حاملاً في نفسه رنين الجبال الحالمة بلقاء الله وفسحة السهول حيث تربض ظلال الملاء على الارض تحت اقدام اشجار الصحاري البعيدة .

في السنة التالية ماتت امه ، فكان لهذا الحدث اعمق اثر في طفولة الفتى ولم يندمل الجرح الذي اصابه طول حياته وسيحمل حزنه على امه حتى « حافة المجهول » ولا يسلوها . ذلك الذي سيتغنى بسعادة الامهات قرب الاسرة ، بحديث الاطفال الى الامهات ، الذي سينشد اجمل اغاني الامومة والطفولة ، لم يعرف تماماً ، وهو طفل ، ما هي الامومة :

« سانظم بدموع الامي عقوداً من الدرر ازين بها عنقك
يا امي . . .
وحزني سيبقى لي وحدي . . .
لقد انطفأ المصباح الذي كان ينير طاقي . . . »

وسيتذكر امه تذكاراً موجعاً بعد سنوات فيقول على لسانها :

« اننا يا بني نتلاق مسرعين في ضر الوجود .
وعما قليل ستهجرنا الحياة .
وسيسدل النسيان استاره على حبنا . . . »

ولكنها ستتذكره كما يتذكر الجبلُ الراسخ النهرَ الذي تمرّغ على اقدامه وذهب بعيدًا :

« النهر يجري مسرعًا مرتلًا اغنيته ،
يشق طريقه بين السدود والصخور ؛
ولكن الجبل الراسخ يظلّ قائمًا يتذكر ،ـــ
ويرافق النهرَ بانظاره من بعيد ، وقلبه طافح بالحب . . . . »

كان رابيندرانات في الرابعة عشرة حينما بدأ ينتقي من دفتره الازرق المشهور الذي كان يكتب عليه قصائده ، بعض مقطوعات من شعره ويرسلها الى اشهر مجلة ادبية في كلكوتا ، فاخذت الانظار تحوم حوله . لكنه ظلّ على الاخلاق التي تعوّدها ، سابح الافكار ، ذاهلًا عن الدروس . اما ابوه فلم يكن بالذاهل عنه ، ولم تكن لتكفيه شهرة ابنه العابرة ، فارسله الى معهد «مار فرنسيس كسفاريوس الذي يديره يسوعيون من بلجيكا»وذلك طمعاً بتليين اخلاقه ؛ ولكن الشاعر الصغير ظلّ يعشق الاحلام والحرية وينبذ كتبه. وفي تلك الحقبة من عمره بدأت تطلّ شملات النبوغ فظهرت فيه موهبة الكاتب ونظم معزوفاته الاولى التي كان يغنيها بصوته الرائق الجميل يعاونه اخوه فيزعجون الاهل ويزعجون الناس بالغناء . لم تطل اقامة رابيندرانات في معهده الجديد فتركه ، وقد كتب بعد خمسين سنة هذه الكلمات :

« احفظ ذكرى مؤثرة من معهد كلكوتا ، هي ذكرى الاب « بنوراندو » . لقد كان قليل العلاقة بنا ، واظن انه اخذ على احد المعلمين في صفنا . وفي وقت المسابقات كانت افكاري ، والريشة في يدي ، تشرد هنا وهناك . ذات يوم بينا كان الاب يناظرنا ويمشي ذهاباً واياباً على المقاعد ، لاحظ ان ريشتي لم تتحرك منذ وقت في يدي . وفجأةً وقف ورائي وانحنى واضعاً يده على كتفي قائلًا بهدوء ونعومة : « أتحس بمرض يا صغيري ؟ » انه لسؤال بسيط ولكني لم استطع ان انساه ابدًا . لست اعلم ما كان شعور التلاميذ في حضرته اما انا فكنت اشعر بحضور نفس كبيرة ، وما برحت حتى اليوم ذكرى تلك الروح تدعوني الى ان ألج خلوة هيكل الله . »

هكذا كان رابيندرانات الصغير يرى الكبير في الارض ويحفظ له ذكرى. لَم يحفظ في ذاكرته رسم معلمه ولا شكله الخارجي ، ولكنه حفظ ذكرى روح كبيرة قديسة « ما برحت تدعوه الى ان يلج خلوة هيكل الله » .

وستكون حياته كلها خلوة بين الله و الطبيعة ونفسه . وقد اعترف احد اصدقائه الذين قضوا معه اكثر من خمس وعشرين سنة ، بان قليلاً من الناس قضوا شبابهم في خلوة كخلوته في القرى وعلى ضفاف السواقي وظلال الاشجار. لا شك في انه بعد تلك الخلوة الاولى قد انتقل الى معمعة العالم والى ضجيج ساحاته وعواصم بلدانه ولكنه لم يفقد مرة في حياته تلك القدرة على التأمل والاختلاء بالرغم من الصخب ، فظلّ فتيّ النفس ، وظل كالطبيعة المتجددة التي احبها ، ينهض كل صباح وفيه عزم جديد الى دخول حقل الحياة الواسع. وهذا ما يشرح لنا ايضاً تلك القدرة الغريبة على التأليف حتى على حافة القبر.

وهكذا قضى السنوات الاولى من مطلع شبابه متمتعاً بجمال الطبيعة ، شارداً ، متفلتاً من قيود المدرسة وتدجيل الناس ، يدور في مقاطعات الهند متأملاً يحسّ بالسعادة تتغلغل في كل مخلوق من الوجود :

« اني ازرع الطريق وحيداً عبر الحقول والشمس تجمع اشعتها
وتنثر ذهبها المنثور على الارض كانها بخيل شحيح ،
وضوء النهار يغرق رويداً رويداً في اعماق الظلام . . .
وفي المنازل . . . قلوب الامهات ، ومصابيح الليل ، والاطفالُ في سعادة وحبور ،
سعادة مَن لا يعرف شيئاً عن قيمته للعالم . »

لم يرضَ والد رابندرانات عن تلك الاخلاق النازعة الى التحررّ ، المجفلة من الاساتذة ، ولم يكن الولد ليلين ، الى ان أُرسل وهو في السابعة عشرة الى انكلترا ليدرس الحقوق . فسُجل اسمه في « بريتون » (Brighton) ثم التحق بجامعة لندرا ومكث هناك اربعة عشر شهراً يفتح قلبه للآداب والموسيقى الاوربية فيقرأ شكسبير وملتون ووليم بلايك وشلي وتروقه الالحان الارلندية القديمة ، ولكنه لا يدرس الحقوق .

ويعود الى الهند ليطلع باناشيد وقصائد ومحاولات عديدة يُفرغ فيها كل قلبه الوثاب المحبّ الحياة وشوقه الى وجه مجهول وجمال امثل يحنّ الى الاجتماع بها وتعجز الارض عن تقديمها له :

« بين ضجيج العالم الصاخب الجموح ، يا ربة الجبال ، المحفورة في الصخر ، تظلين هادئة صامتة ! »

الزمان بركع على قدميك متمتماً :
« تكلمي ، حدثيني ، ايتها الحبيبة ! »
ولكن حديثك سجينٌ في الحجر ،
يا ربة الجبال اللامتغيرة ! »

انتحى طاغور زاويةً من قلبه ابتعد فيها عن مسايرة الناس في اذواقهم الادبية وفي تقليدهم الارث ، فاطلّ كتابه « اغاني الغروب » وفيه اليأس يمشي في موكب الامل ، وفيه ايضاً كآبة ناعمة تندمج بفرح زاهٍ فلا تُعرف أهي كآبة ام فرح أهي غبطة بالحياة ام قلق وخشية :

نومة الليالي الملأى بالنور والربيع ،
ستعود لنا ، ستعود .
ولكن الذي هجرنا لن يعود لنا ، لن يعود
ولن نراه ابداً . »

لم يهتدِ بعد طاغور سبيله . انه في تلك الزاوية المعتمة من فؤاده الوحيد الذي يقطنه كل شاب في عمره . ولكن سوف يقطع تلك المرحلة التي تفصله عن باقي اخوانه في معركة الحياة وستندمج عواطفه بعواطفهم حين كان ذات مساء — كما يقول في ذكرياته — يتمشى على سطح داره . في تلك الفترة الهادئة نسي طاغور ذاته الفردية فبانت له الحياة في شمولها واخوّتها الكبرى ، فكتب تحت تأثير تلك الغبطة قصيدته :

« الينبوع المستفيق » الحالم بفيض على كل القرى والسهول :

« آه ! خفقة الماء الصاعدة الفيّاضة ،
ثورة قلبي وحبي للحياة ، لن اصد امامها !
اريد ان اهدّم هذا السجن الصخري
فاسكب سيلاً فيّاضاً
واغرق العالم بانغامي المجنونة المحمومة ! . . . »

احس طاغور منذ تلك الآونة بالرباط الوثيق الذي يشدّ بنفسه الى العالم ، فاذا بذلك الاتصال لشدّة ما هو مرهف دقيق « يكاد يكون مؤلماً . »

وفي هذا الجو الاحساسي كتب طاغور « اغاني الشروق » فدخل في عالمه الرحب حيث سيظل كل الحياة يكتشف كل يوم لوناً جديداً من الوانه ؛

وهذا العالم هو الكون بأسره، هو الانسانية مع كل ما تعصف بها من ثورات.
وهكذا ذاعت شهرة طاغور.

وبعد اربع سنوات كتب قصائد رائعة في «الجمال الامثل»، الكتاب الذي هو من اجمل ما كتب. لقد صفت لغته من الغموض الذي كان يشوبها وانجلت رسوم الاحلام التي كان يتعقبها. فالجمال الذي يبحث عنه لن يريده بعد اشباعاً لانانيةٍ ضيقة، بل مثالاً سامياً تتعاقد فيه كل الارواح. ولكن هنالك مسحة سرٍّ وخيالٍ تطغى على قصائده وتجعل لها طابعاً خاصاً. ولكن هذا الطابع الشخصي كان ابعد من ان يحصر طاغور في الاثرة المحدودة نظير الرومنطيقيين الاوربيين. انه يحاول ان يعبر عن الشوق اللامتناهي وعن الحياة والقوة الخلاقة التي تمشي في النفس الفردية وتمشي في الوجود.

في سنة ١٨٨٣ تزوج طاغور «مريناليني داڤي». وكان ذلك الحدث عهداً في حياته مملوءاً بالصحو والامن بعد زوبعةٍ سرية عصفت في فؤاده. واذا به يتحي الجبل مقرّاً ويعيش في خلوةٍ هادئة ينظم اشعاراً واغاني ترافقه زوجه في إنشادها، بينما هو ينقر على العود؛ ومن ثم انتقل الى «شليدا» لادارة مقاطعة عائلية ورثها.

كان طاغور في التاسعة والعشرين حين توجه ثانية الى اوربة فدار في ايطاليا وفرنسة وانكلترة وعاد من رحلته هذه فذاعت شهرته في الاوساط الثقافية في كلكوتا وعُين حال رجوعه وكيلاً عن رئيس اكادمية الآداب البنغالية.

وهنا بدأ طاغور حياة العراك والكفاح واندفع في خضم المجتمع يحاول بفنه ان يداوي ادوا. بلاده المتأصلة فيعلم بني امته في القصص التي يكتبها جمال التضحية وخدمة الوطن، ويلهب بخطبه النارية الصاعقة قلوب المنديين داعياً اياهم الى نبذ التطاحن والتخاذل والوقوف على ابواب الامم حفاة عراة؛ وباغانيه الشعبية كان يوقظ فيهم روح القومية والنهضة. ولكن مرحلته السياسية لم تطل، لان هناك توافه الحياة واعوجاجات السياسة وتمترها وتصنعها تفسد على الفنان جمال فنه وحلمه وروعة الهدف الذي يصبو اليه. هكذا انكفأ من المعركة الى العزلة، وقد تعلّم من هذا الاختبار المحضّ ان الشعب لن

ينهض ويتابع نهضته اذا لم يكن له من نقاوة روحه داعٍ يهيب به كل حين الى النهوض ومتابعة الجهاد .

عاد ادراجه ولكنه لم ييأس . يريد خدمة بلاده عن طريق اثبت وآمن . يريد تهذيب الشعب وفتح روحه المغلقة على العالم كله . ولقد علم ان للايام دوراً في نشوء الامم وارتقائها ، وان ساعة النضج لا تأتي بسرعة او بقطع مسافات الزمن ، بل بالتريث والانعكاف اليومي على نحت الذات وصقلها ، وبعثها اخيراً الى النور . وذلك يتطلب شهوراً وسنين .

وفي سبيل ذلك سيكرس طاغور نصف عمره تماماً ، وهو في الاربعين .

٭

ترك كلكوتا وجوها السياسي حيث تتخبط المشاحنات واعتزل في الخلوة التي اسسها ابوه في « سانتي نيكاتان » (Shanti Niketan) وهناك بدأ التلميذ القديم الذي رفض نظام المدرسة وصرامتها ، يدعو التلاميذ الى العلم ويعهد لهم السرور والحرية والتعليم حسب الطبيعة وحسب دعوة كل في الحياة . ارادها لا حانوتاً ضيقاً تضيع فيه الشخصية الفتية ضمن نظام يستبد ، بل مرجاً واسعاً يقطف الفتى منه الزهرة التي توافق ميله ويزرعها في حقل نفسه ويتعهدها فينمي العطية الاساسية التي اسبغتها عليه السماء .

وبدأت الحياة تجحف بحقه فماتت زوجته (١٩٠٢) ومات معها في نفس الشاعر شيء من الحنان والغبطة . وتتابعت عليه المصائب الهائلة الفادحة . ففقد ابنته الصغرى (١٩٠٤) وكم يخلّف الاصغرون اذا غابوا من حرقة في قلوب الاهل ، وفقد اباه الرجل الحازم « القديس » (١٩٠٥) وفقد ابنه الاكبر (١٩٠٧) . ترى اية تعزية لرجل الفن في الآونة العصيبة غير فنه ؟ اذكر ما قرأت ان « موزار » ، يوم كان الفقر يعضه بانيابه القاسية ويصادر الجنود اثاث بيته الرث البالي رغم ولولة الزوج ونحيب الاطفال ، كان مع آلته الموسيقية يضرب الحانا يتناسى بها الواقع المؤلم المرير ويخلق بها دنيا من العدالة والرفق بالانسان اجمل من دنيانا . كذلك كان طاغور يسهر الليل الطويل قرب فراش ابنته العليلة يكتب اشعاره ويعيش الامال المحتضرة مع الصغيرة المحتضرة . قرب ذلك الفراش ، كتب الشاعر ديوانه « الطفل » طالباً في الفن وفي عالم

الطفولة سلوى عن الطفولة التي يحدوها [illegible] وسيرذي [illegible] قليل وكتب ايضاً « التذكار » ، وهو يحوي ارق اشعار قيلت في رثاء فقيد :

« كل شيء حولي ظل على ما كان عليه :
الاشجار والتراب ، المياه والشمس ، القمر والنجوم ،
انما الشخص الذي كان الصق بحياتي من كل هذا ،
قد توارى في لحظة كما يتوارى الحلم . »

قد تضعضع المصيبة قلب الرجل العادي ، اما رجل الفن فاذا هاله الواقع يغني فتحمل الكلمات آلامه ويبقى في نفسه الامل بالحياة .

*

عندما بلغ طاغور الخمسين من عمره احتفلت الهند كلها بذكرى مولده في عيد شعبي حافل . فنشر كتابه « قربان الاغاني »[1] وترجمه بذاته الى الانكليزية ، فقفزت شهرته وراء حدود بنغاليا والهند اتصل بالعالم كله نظير ذكائه الوسيع وصدره الرحيب .

لا يسعنا ان نتتبع طاغور في كل مؤلفاته وان ندرسها ، نظراً لغزارتها ، فان ذلك يتطلب مجلداً ضخماً ، بل نقتصر على سرد حياته والالماع الى بعض مؤلفات اخرى غير التي ذكرنا .

١٩١٣ – لا هم لطاغور بعد الآن الا جامعة (Shanti Niketan) فسيكرس كل جهوده في سبيلها . لقد ترك بلاده ورحل نحو الولايات المتحدة يحاضر ويقنع الامة الاميركية بحرارة القلب والاخلاص بضرورة ما يسعى لاجله . ثم توجه نحو انكلترة يلقي المحاضرات العديدة فيحالفه النجاح في لندرة حيث ظهر بالانكليزية ايضاً كتاباه « بستاني الهوى » و « الهلال » . وكان ان اعجب الشاعر الايرلندي (Jyeats) « بقربان الاغاني » فقدم طاغور الى اعضاء الجائزة نوبل فاعطيت الجائزة له بعد ان تُرجم كتابه الى اللغة الاسوجية بقلم الكاتبة (Andréa de Butenschön) . وهكذا لفت الشاعر الهندي الكبير انظار العالم . فتكررت شهرته ، وتنافست جامعة كلكوتا تلميذها القديم الكهول فمنحته لقب دكتور شرف .

[1] راجع « قربان الاغاني » ترجمة يوحنا قمير . مطبعة المرسلين اللبنانيين .

١٩١٤ — وتتابعت منشوراتـه ، والغرب المحموم يغلي بالدماء الثائرة المتفجرة . فمن « دورة الربيع » الى « سلة ثمار » الى « الهاربة » مرّا « بالبيت والعالم » ، اجمل روايات طاغور على الاطلاق . بطل الرواية هو طاغور نفسه في المعترك السياسي حيث ينعى عليه الثورويون اعتداله ، وينعى عليه المحافظون ثورته ، امـا هو فيعلن دائماً صوت الحق والعدالة الانسانية التي تقبل بالواقع وتجمّله ... وانها الرحلة الرابعة تدعوه فيسير الى اليابان والى الولايات المتحدة من جديد وتقذف به الضرورة الى السياسة مرة ثانية بالرغم منه فاذا هو رئيس المؤتمر الوطني الهندي في كلكوتا .

ولكنه ما كان ليتناسى فكرته التي كرس حياته نهائياً من اجلها ، ألا وهي توسيع نطاق جامعته ، وجعلها نقطة التقاء وتفاهم بين الامم ، بين امم الشرق والغرب لكي تفنى المنازعات المستمرة التي ما برحت بلاده منذ ١٩٠٧ تقاسي البلايا من جرّائها . وفي سبيل فكرته هذه قدّم ريع جائزة نوبل التي اعطيت له ، وقدم كل حقوقه على مؤلفاته بالبنغالية ومقاطعة (Shanti Niketan) ملك اجداده .

وبينما كان غاندي ينحني على واقع بلاده المرير ليحاول ابعاد مصيبة الساعة الحاضرة ، كان طاغور ينظر الى المستقبل فيبنيه يوماً يوماً ويحـاول ان ينهض بالواقع الموجع الى جمال المستقبل الضاحك .

لن يرتاح طاغور طول حياته ما دامت فكرته تلحّ عليه . هو على اهبة الانطلاق دائماً الى اقاصي العالم لكي يطلع العـالم على مشروعه ويقنعه بان التفاهم ضرورة انسانية لا سبيل الى الاغضاء عنها . فها هو يدور في البلدان يخطب ويحاضر بلهجة حارة واقتناع ملتهب في انكلترة وفرنسة وهولنـدة وسويسرة والمانية والدانمرك واسوج والنسة وتشكوسلوفاكيا .

١٩٢١ — طاغور في الستين من عمره — امامه عشرون سنة بعد سوف يملأها بالرحلات والاعمال والتآليف . هو يستعد لتدشين جامعتـه فترسل الدول ممثلين الى تلك البقعة النائية في الهند ، البعيدة عن صخب المدنية الكاذبة ، الى الطبيعة الحقة ، فكانت اول خطوة في التفاهم بين الناس .

من « عصبة الامم » الرامية الى اقرار السلام في العالم ، وما أثرت سلاماً ، الى « هيئة الامم المتحدة » الرامية الى الغاية ذاتها والعائدة بالفشل ذاته ، الى « الاونيسكو » ، التي ما افلحت بعد في تهدئة الخواطر العالمية الهائجة ، في كل هذه المحاولات فات المحاولين ان التفاهم والسلام لا يستقران بين ليلة حرب وضحاها ، فهما بناء صابر يتطلب اياماً وشهوراً وسنين . الاونيسكو يجب أن تكون نتيجة تهذيب عقلي وتعليم طويل ، والنتيجة لن يبلغ اليها بغير الوسائل ، والوسيلة الوحيدة هي تثقيف الشعوب بتثقيف أبنائها ، فالنخبة الدولية المتفاهمة لا تكفي . وفكرة طاغور هي الكافية لانها تعنى بالاساس .

في (Shanti Niketan) مدرسة تعليم ابتدائي ، ومعهد عال ، ومركز للابحاث العلمية ، ومعهد للفن والموسيقى ، ومكتبة ضخمة تحوي ستة وثلاثين الف كتاب من جميع لغات العالم . وتصدر منها مجلة تبحث في الفن والادب والفلسفة : .

« هنا حقل لالعاب « التنيس » ، هناك فتيان او فتيات من أمم مختلفة يتحادثون بكل المواضيع ويشربون الشاي ؛ هذا هو المختبر الجديد يرفع جدرانه اللامعة تحت اشعة شمس محرقة ، وهذا عالم صيني ينحني فوق مخطوطة ، تلك عربة علوءة حصى يقودها عمال نشيطون . الحركة في كل الجهات . هنا الغناء ، هنا الرقص ، هنا الرسوم الفنية ، هنا النحت ، هنا العمال القرويون بصناعتهم المختلفة من نسج وحياكة و و . . . »

هذه الحياة التي تضج في تلك البقعة ، هي قبس الامل الطالع يبشر بالاتفاق والتفاهم والايمان بقيمة الشخص البشري ، وطاغور هو المحرك الاول ، المرسل الاول ، الواثق الاول .

٢٥ ــ ١٩٢٤ ــ طاغور ، السائح الكبير ، الرحالة الذي لا يتعب يسير في رحلة سادسة تستغرق اربعة شهور الى الشرق الاقصى : من ماليزيا الى الصين الى اليابان ، ثم يتوجه بعد ذلك الى البيرو والارجنتين وبعدها الى ايطاليا .

ثم يعود الى كلكوتا حيث يعين رئيس المؤتمر الفلسفي للهند . أثرت هذه الرحلات الشاقة على صحته فساءت بعض الشيء ، وقطع عليه المرض بعض لياليه . ولكنه لن يتعب ويدعوه الداعي مجدداً فيمشي الى ايطالية وسويسرة والنمسة وفرنسة وانكلترة ونروج واسوج والدانمارك والمانية وتشكوسلوفاكيا

وهنغاريا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وتركية واليونان ومصر .

ترى ما الذي اقعده عن المرور بلبنان ؟

١٩٢٧ — هي رحلته التاسعة الى ماليزيا وجاوا وبالي والسيام .

١٩٢٨ — الى ماليزيا والصين واليابان وكندا والهند الصينية حيث استقبلته الحكومة رسمياً في سايغون .

٣١ — ١٩٣٠ — طاغور في السبعين من عمره يتوجه الى فرنسة وانكلترة والدانمارك والمانية وروسية والولايات المتحدة .

اما غايته من كل هذه التنقلات فهي ان يعرّف العالم بجامعته ويجمع لها اسعافات ويبشر بفكرة السلام — وان طاغور رجل السلام العالمي يحمل من كل بلدٍ مرّ به شيئاً من عبقرية ذلك البلد وينقله الى الآخر فيحلّ شيء من التفاهم بين الامم بشخصه . لقد كان هو الجامعة الذي صهر كل العبقريات في نار ونور روحه ، وحمل هموم العالم من قطب الى قطب بين اضلاعه — طاغور ، ابن العالم ، لم يعرف حدوداً لنفسه ، فهي بنت الله اللامحدود ، وهي مُقادة ابداً بظمإٍ اخرس لا تعرف اهدءا :

« ان نفسي تلبس اليوم رداء المسافر وتهيم
يلحّ عليها ظمأ ثائر ،
فهي متلهفة الى الاندفاع في الطريق . »

هو ذلك المجهول يدعوها اليه فتمشي مفتشة ، باحثة . هي تبحث عن سر العلاقة بين الامم ، عن سر المحبة الذي يعقد الناس ببعضهم ، يبحث في النهاية عن الله ، ولقد عرف ذاته بعد هذا كله وعرف الله في ذاته قريباً ، محباً :

« ايام اسفاري طويلة ، وطريقي بعيد .
~~خرجت في موكب الشعاع الاول ، وجبت العوالم الخالية~~
وتركت شيئاً مني على الوف النجوم والكواكب
ولكن أبعد الطرق أقربها اليك . . .
على المسافر ان يطرق على كل باب قبل الوقوف على باب نفسه ،
وعليه ان يهيم في مسرح العوالم الخارجية قبل ان يهتدي الى قدس اقداسه!
عيناي كم جابتا من فضاء قبل ان اغمضها واقول : انت هنا !»

« ايها القلب النّهيم ، أفأستطيع ان اقبض على الدنيا كثمرة ناضجة لاضعها بين يديك الورديتين ؟ »

(طاغور)

ازفت ساعة الرحيل . . . اني اسافر فارغ اليدين طافح القلب بالامل . . .
طير يحلق في الفضاء ، لا ليذهب في تحليقه الى الخلاء ، بل ليرجع ثانية الى ارضه
ـظمى . . . !

([illegible])

« انت هنا ! » هي الكلمة العظيمة التي قالها شاعر الهند . اذا كان «هنا» فلا حاجة بعد الى الذهاب بعيداً . واستقر طاغور في المقر الذي سعى في انشائه السنين الطويلة . ولكنه ما برح يتابع نشاطه فينشر في السنة الاخيرة من حياته ، خمسة دواوين شعرية ، وتأتيه من جميع الانحاء جموع المعجبين به فيستقبل الكل بتلك المهابة التي عرف بها وبتلك الابتسامة التي رافقت دوماً محيّاه .

منذ ذلك الحين اصبحت جامعته المركز الرسمي حيث تتلاقى الآن صفوف من جميع امم الارض ؛ اما ادارتها فهي بيد ابنه رآتيندرانات طاغور . . .

لم يبقَ له من العمر الا سنةٌ واحدة ، سنة قسا الالم فيها عليه. فكانت فرصةً للتأمل ليس بالمه الفردي ، بل بآلام الجماعة البشرية ، رفاقه السائرين معه على الطريق ، المنشدين في مزوقة الحياة المتجددة كل حين . والالم عند طاغور هو الدواء الذي يغسل النفس من الارجاس التي علقت بها اثناء رحلتها على مسرح الحياة . والحياة غسل وتطهير متواصل ينتهي بالموت ، والموت ان هو الا نغمة من انشودة الحياة المنغلتة من عند الله ، والتي تتجدد دوماً في اطار ابدي .

عاش طاغور آخر ايامه في بساطةٍ كاملة . فكان يقطن بيتاً صغيراً من تراب بناه تلاميذه بايديهم التقية . وكثيراً ما كانت العواصف تهزم في ذلك البيت الحقير فتزعزع جوانبه الواهية ويوشك الشاعر العظيم ان يموت .

« في ذات يوم » اشتد المرض على جسمه الناحل ، فنقل الى كلكوتا ، الى البيت الذي شاهد فيه الشمس لاول مرة ، وهناك اغمض عينيه لاخر مرة . ذلك الذي سمّاه ابوه « الشمس لان العالم سيبتدي بنوره » فتح عينيه اذ ذاك فابصر الشمس الحقيقية التي لا يعروها كسوف ولا نقصان .

« في ذات يوم » ، كذا كان يبدأ بالكثير من قصصه ، انتهت القصة الرائعة التي عاشها ، ومات رابيندرانات طاغور :

« كيف تستطيع ان تقطع سلسلة الحب التي تجمعنا ؟ . . .
انت سيدي وانا عبدك .

منذ الازل حتى انقضاء الاجيال ،
كان الحب بينك وبيني معقوداً .
ان حباً كهذا كيف تحد شعلته ؟ . . . »

• • •

« من عرشه الازلي
نزل المسيح الى الارض
وفي كأس الموت المرير
سكب حياته الابدية
للذين لبّوا نداءه
وللذين ظلوا الى الوراء . . . »

• • •

« من هو ؟
نحن ما عرفناه وما رأيناه ابداً
ولكننا نعلم
انه غاية الانسان
واليه نمشي في الليالي المظلمات ،
تحت الزوابع والرعود
وفي مدى الاجيال . »

• • •

« خلصهم ! انتَ ، يا ذا الحياة الابدية
وليسمعوا صوت الرجاء ، صوتك الازلي ! . . . »

• • •

الشاعر الفيلسوف

لقد كدّ فاغور وتعب فلاقى انتصارات وعرف اخفاقاً . اعطته الحياة ومنعت عنه . ولكنه لم ييأس منها بل احبها حتى العبادة . وان ما كان من شأنه ان يجعله برماً بالحياة متشائماً ، زاده حباً للحياة وتعلقاً وفرحاً بجمالها . لقد احس بانه واحد من هذا الكون العظيم ، له قيمته التي لا تعوّض ؛ واحس بان هذه العلاقة التي تربطه بالخلائق ليست الا نتيجة وحدة اساسية تضمّ الكل

اليها في نظام ابدي لن يفسد . وفي كل فلسفته وكل شعره وموسيقاه وتصويره ، يحاول طاغور ان يعبّر عن تلك العلاقة التي تشده الى الكون ، وتشد الكون الى الله .

وهذا الاحساس اورث عند كثير من الشعراء والفلاسفة قلقاً مريباً . فهم اذ يشعرون بانهم على صلة بكل الخلائق ، بآلام البشر وآمالهم باحزانهم وافراحهم ، يشعرون ايضاً بان كل مخلوق هو اعزل امام مصيره يكوّنه وحده بينما الخلائق في لهو عنه ، والاشياء في غفلة لا تنتبه اليه : هذه هي كل مأساة الوجوديين العصريين . اما هذا الاحساس عند طاغور فكان سبب فرح عظيم غمر نفسه اذ تلاشت الحواجز التي تقيمها الارادات المتنافرة سدوداً يوجه الحب الموحّد ، وانهارت رويداً رويداً امام العلاقات الاساسية التي بها يستطيع الانسان ان ينادي كل مخلوق : يا اخي . اي شبه هنا بالقديس فرنسيس الاسيزي !

وهذا ما جعل طاغور ينظر الى الحياة فيراها جميلة ، جميلةً لا حد لجمالها ، فوثق بملكة الأرض واحبها حتى يصل بها الى الله ، عن طريق الاتحاد بين العناصر الثلاثة : الأنا ، الكون ، الله .

تشعر وانت تقرأ طاغور بذلك الاتحاد مع الطبيعة ، مع اثمارها واشجارها ، اشواكها وورودها ، ترابها وصخورها ، اتحاد مع كل هبة نسيم وحفة غصن على ضفة ساقية ، وانة جدول على نعومة صخور ، اتحاد في النهاية مع الذي ابدع كل هذا .

لقد احس بانه اخ الفلاح الضارب في الحقل ، اخ الفيلسوف ، اخ البرهمي ، اخ المرذول اللامدوس ، اخ العالم باسره . فاذا تألم في الكون وتر كان في قلبه صدى الم داخلي عميق الغور ، واذا انتشى طائر على غصن ، ترنمت في فؤاده اعوادٌ واستفاقت مزامير . وهنالك شاعر آخر اسمه (Ladislas Mècs) احس بتلك العلاقة الودية بين الكل :

« انا مرآةٌ تنعكس فيها كل الابتسامات .
انا ما هي من الحياة الا ان أُرجع تلك البسمات ،

الى الزهور والفراشات ، والاطفال والاحلام .
ان أرجعها . . . ،
الى النور والنجوم والقمر ، والى الاغنياء والفقراء ،
الى الآلام والافراح ، والبؤس والسعادة .
الى الورد والشوك ، الى الصليب ،
ان أرجع بسمة الكل الى الذي هو الكل ،
بسمة الله الى الله . »

وكما قال « سوللي برودوم » في المعنى ذاته ولكن مع شيء من التشاؤم :

« Tout mon être est lié à des fragiles nœuds
Au moindre ébranlement qu'un souffle cause en eux,
Je sens un peu de moi s'arracher à moi-même. »

وهذا التفاؤل بالحياة جعل فلسفة طاغور تمرّ بالحلولية . ولكن الشاعر اذ اصبح فيلسوفاً من الصعب عليه ان يتفلت من فكرة الحلول وان لم يكن حلوليًا مؤمناً . اما متى عرفنا ان اعتقاد طاغور الديني كان مزيجاً وانتقاء من جميل ما في كل الاديان ، وان شعره كان رحابةً وذكاء يقتبل كل آثار العلم الفنية ، وان عقله كان يوسع مقرًّا لاضعف مخلوقات الارض ، فندرك ما في فلسفته من الاتصال بكل ما في الوجود من موجود .

بينما الهنود اجيالاً لا يتعرفون الى غير ذاتهم المحدودة كان طاغور مواطناً عالمياً بافكاره ورحلاته . قد يكون اوحب فكر واكبر رحالة عرفه التاريخ، وقد يكون اعظم من رأى الحياة جميلةً بهذا المقدار ، وانشط من سعى الى تجميل الحياة اكثر فاكثر عن طريق الثقة بالارض والعبادة لله . ولم يخشَ عند ساعة الفراق ان يكون خالي اليدين ، فان في قلبه نور الامل ، فرحلته الاخيرة اجمل الرحلات :

« هذه ساعة الرحيل فادعوا لي بالتوفيق ، انتم يا احبائي !
الفجر احمرار يشع في السماء ، والدرب فسيحة ساحرة
لا تسألوني عما احمل . اني اسافر فارغ اليدين ،
طافح القلب بالامل ! . . . »

فمنده كل شيء جميل كأغنية جميلة : الحياة اغنية والموت اغنيــة والنفس قيثارة ترن على اوتارها اغاني الموت والحياة ، وتأتلف مع اغاني الارض كلها لتغور في الاغنية العظمى التي ينشدها الله في فرحه الابدي ...

*

الموسيقي

كان طاغور جميل الصوت ، حلو الأنشودة ، يؤلف القصائد ويلحنهــا ويغنيها . وكثيرًا ما كان يمثل ادوارًا في رواياته فيبدع في التمثيل والغناء . وحين يغنّي طاغور – حينما غنّى في العراق قصيدته « الطائر المكسور الجناح » – يتوارى ذلك المحدّث الهادئ الناعم فيظهر الموسيقار يتلوّى مع النغم تارةً في ثورة جامحة وطورًا في خفوت يحاكي هديل الورقاء .

ولا عجب فبنغاليا هي بلد موسيقى تستمد مواضيعها من «جبالها وانعكاس سواقيها المتلألئة المياه ، وهدوء ضياعها المستكين ونعومة فتياتها . وخصوصًا من دياناتها » . وطاغور ألّف في كل هذه المواضيع فأبدع وكان مجيئه عصر الموسيقى الذهبي ، ومن بعده اخذ هذا الفن في التقهقر .

كل ما في طاغور نغم عذب مستطيل . فــاذا شعر كان في نثره حنين رائق لا تستطيع الترجمة رغم وثنيتها وبربريتها ان تلاشي رجعاته . وفي ذلك قالت احدى البنغاليات المعجبات به ، وقد عنت ترجمة شعره : « ان الفراشات المصبّرة في وعاء ، تحت غطاء من زجاج ، تحتفظ على الاقل بشيء من الألوان المتنوعة التي كانت تلقي على تلك الفراشات ثوب الجمال . » والشعر عند طاغور موسيقى ، لانه تعبير عن النفس ، والنفس لحن من انشودة الخلائق المترنمة بتسبيحة الجمال الاول وبحلاوة السكنى في الارض .

وطاغور اذا نثر ، كان لفكرته رنة خاصة . ففكرته دائمًا موسيقيــة تدخل الى القلب قبل ان تصعد الى الرأس – ففكرته ملأى لا بذلك الجفاف العقلي وتلك البرودة المنطقية الغربية ، بل بالاقناع الناعم الذي يتقبله الفؤاد كما تقبل الاسفنجة الجافة قطرات الماء .

وطاغور اذا رسم[1] كان موسيقي الخطوط ، هادئ المقاطع حيناً وثائرها حيناً آخر . قُدّر لي ان اقع على صفحة من كتاباته يتخللها رسم تبرز فيه كل قوى الفنان الموسيقية من حرارة ودفء وفي ، كأنما تلك الصفحة دعتني لا الى قراءتها بل الى ان اغنيها .

وطاغور اذا نظر الى الحياة متفلسفاً شاهدها قيثارة توقع عليها البشرية الحانها ووجد ان كل انسان في الارض يوقع لحنه الخاص الذي اذا اجتمع بانغام الخلائق الاخرى لا يحدث من ذلك تشويش واضطراب بل ائتلاف وكمال . كأنما الكون كله آلة موسيقية متعددة الاوتار متآلفة النغمات في معزوفة الحب لله ، الحبيب الاول ؛ وهكذا شبه طاغور قلبه : « ان قلبي قيثارة تنقر عليها اصابع حبيبي . »

ولقد شعر طاغور بهذه الهبة التي أوتيها وعلم انه سيخلد بها على الاقل في قلوب مواطنيه حين قال :

« يستطيع اهل بلادي ان ينسوا فلسفتي وشعري ولكنهم سيتذكرون دائماً اغاني . »

وكيف ينسونها والفلاحون في اراضيهم والقاذفون بالمجاذيف على مياه الفانج ، والامهات قرب مهود اطفالهن ، والفتيات في خلوات احلامهن ، والاطفال اللاعبون اللاهون ، والجنود الناضبون لكرامة استقلالهم الوطني ، وبنغاليا كلها اليوم وغداً كلما عصفت بها رياح اليأس او جرى في نجودها نور الامل تعبّر عن عواطفها بأناشيد من طاغور .

وان طاغور قد ترك في الموسيقى آثاراً مدهشة وكتباً عديدة : « اغاني » ، « خمسون انشودة » ، « ترانيم » ، « الجدول » ، « رياضة في الغناء » وثلاثة دواوين موسيقية . فله اكثر من ألفي اغنية ألّفها ولحنها .

ولا عجب في ذلك «فالشعراء الحقيقيون ، كما قال ، يحاولون ان يتصوروا الكون تصويراً موسيقياً ، لان الموسيقى هي اكمل انواع الفن ، واصدق معبرة عن الجمال . »

---

[1] كان يوسعنا ان نتكلم عن طاغور المربي ، والممثل ، خصوصاً الرسام الذي ترك الوفاً من اللوحات المصورة مع انه لم يشكرس لهذا الفن الا عند السبعين من عمره ، ولكن ضيق المجال لم يسمح لنا بذلك .

« والجمال حاضر في كل شيء . وكل شيء بوسعه ان يملأنا فرحاً ؛ وعندما نعرف ان ندرك الجمال احسن مما ندركه ، كل خلل وتشويش ظاهر يبدو لنا نغماً موقتاً ... واخيراً نعرف انه يأتلف مع سائر الانغام كلها . »

هذه الوحدة ، هذا الائتلاف الشامل راود فكرة طاغور ؛ فلم يكن يستطيع ان يؤمن بما لا وحدة فيه : الكلمات تتوافق وتتحد بنوع من النغم ينادي تلك الكلمة الى تلك الاخرى ، والقلوب تتعاقد كالانغام والشرق والغرب قلب متابع النغمات ، فالانسان نغمة في العالم ، والعالم نغمة الله ونشيد فرحه الازلي .

٭

طاغور وغاندي بين الشرق والغرب (١

طاغور هو الذكاء الرحيب المنفتح على كل ثقافات العالم ، وغاندي هو النفس المتقشفة الخيّرة . وكل منهما اعجب بالآخر وقدّر له الاحترام والمحبة ، فقال طاغور في غاندي اجمل ما قيل فيه : « لقد ظهر المهاتما غاندي ، واقفاً على اكواخ الالوف من المحرومين ، يرتدي ثياباً كثيابهم ويكلمهم بلهجتهم . وهكذا فان اسم المهاتما (النفس الكبيرة) الذي اعطي له هو اسمه الحقيقي . مَن غيره شعر بان ابناء الهند كلهم هم لحمه ودمه . . . فلنعظم المهاتما الذي فيه تجسنت قوة الحقيقة ... »

وغاندي من جهته كان يكنّ التقدير لطاغور ويستودعه اولاده حين يذهب الى انكلترة ، ويحلو له مراراً ان يقضي في (Shanti Niketan) اياماً عديدة فيستقر هناك كأنه في منزله الخاص .

وكلاهما ابغضا — اذا صحّ انهما استطاعا البغض — ظلامات الغرب وديكتاتوريته المستقرة ومصانعه الحديدية التي تستعبد الانسان .

ولكن التفاوت الفكري بين الرجلين العظيمين بدأ بعد رجوع طاغور من اوربة فأحس بالحمى تضرب في الرؤوس إثر جرائم بنجاب واعلان « اللاتضامن » مع الانكليز ، وكان غاندي قائد حركة « اللاتضامن » و « اللاعنف » . اما

١) لم يؤمن طاغور بكلام روديارد كيبلنغ الذي صار مثلاً :

« East is east, And west is west
And shall both never be at rest. »

طاغور فكان يرفض كلمة « لا » ، وهو القلب الواسع الـذي يرحب بكل السمات من حيث اتت . الموضوع العزيز على قلبه ، الذي هو اساس فلسفته ، هو موضوع الوحدة مع الطبيعة والخلائق ؛ والوحدة ليس فيهـا « لا » ورفض وانكماش :

« الوحدة هي اتصال كل شيء بكل شيء ، فلن تُدرك عن طريق السلب والرفض . »

لقد قال مرة للذاهبين من بلاده الى اوربة :« عودوا الينا حاملين كل قوى الغرب الروحية . ان نفسنا هي بحاجة الى نفسهم ، كما ان نفسهم بحاجة الى نفسنا . فالانسانية واحدة في جوهرها : ومـا الشرق والغرب الا خفقات متتابعة من قلب واحد . كل خفقة تتقدم الاخرى وتليها . »

وان « اللاتضامن » الغانـدي كان يجرح ذكاءه في الصميم وهو المرسل الذي يدور في القارات يدعو الى تأييد جامعة عالمية تتهدم فيها الحدود الوهمية، فيتفاهم الناس وتضمحل المنازعات المورثة الخراب . ولقد ادرك خطورة موقفه امام الغرب حين قال وهو في اوربة :

« اية مهزلة من القدر تدعوني الى ان ابشر هنا بالتضامن بين الشرق والغرب ، بينما يُبشر باللاتضامن هناك . »

قد كان طاغور يدعو الى نهضة كبرى تشترك فيها كل الامم في العالم فيقول :

« ان النهضة اليوم هي نهضة عالمية . فلن ينجو شعب دون شعب . فاما الخلاص معاً واما الهلاك معاً . »

وحينما علم ، وهو في انكلترة ، ان الطـلاب الهنود اضربوا عن درس الانكليزية كتب الى مدير « سانتي نيكاتان » وكيله ، يلقي المسؤولية على الحركة اللاتضامنية التي يتزعمها غاندي :

«ان المحاولة الحاضرة لابعاد عقلنا عن عقل الغرب،ان هي الا محاولة انتحار روحي.»

اما غاندي ، رجل الواقع الموجع ، فكان يجيب بهدوء انه قبل تعاون الامم كلها ، يجب التعاون الداخلي بين افراد الامة الواحدة ، « وقبل الزراعة يجب تنقية الارض واستئصال الشر منها . »

يتكلم طاغور عن التريث والاحتمال ، والتطلع الى المستقبل الجميل الذي

يسعى اليه شباب الهند في يقظتهم القومية لخدمة العالم ، فيجيبه غاندي :

« عندما تشتعل النار في البيت ، على الكل ان يحملوا الماء لاطفائها . هذا هو الواجب اليوم ، اما الغد ، فالله يهتم له . . . ان الشعب الهندي يموت . . . فعلى الهند ان تتعلم كيف تحيا لاجل العالم قبل ان تتعلم كيف تموت لاجله . »

هذا هو شبح الواقع اليومي الشنيع يقف بوجه طاغور ، رجل الفن فيفسد عليه جمال احلامه الشاردة الى عالم الامل المعزي . اذ ذاك تكفيه صرخة اخرى رائعة فيها نشوة وغبطة وفيها شيء من الاخفاق :« ان امجاد الانسانية هي امجادي . . . ولن يدرك الانسان شخصيته اللامتناهية الا بتوافق عظيم بين شعوب الارض كلها . » بعد هذا انتحى طاغور زاوية أبعدته عن السياسة المباشرة ، وكان عنده من الاتضاع والمحبة الشيء الكافي ليترك لغاندي قيادة النهضة ، فدعي « الوطني الكئيب . »

وتابع الرجلان العظيمان وجهتهما في الحياة ، كلٌّ في طريقه فكان صوت طاغور يتضاءل في عالم السياسة حتى سنة ١٩٤١ فيختفي الى الابد ليرتفع أعمق واشمل في قرارة نفس الانسانية ؛ وكان صوت غاندي يدعو الى « اللاتضامن» مع الآخر و « اللاعنف » او التسامح معه بالوقت ذاته ، الى ان انطوى ضحية الانسان الذي جرّد حياته لخدمته في العالم فرفعته الانسانية مثالاً اعلى للحياة.

غاندي وطاغور قلبان محبان ما ابغضا ابدًا ، وان غاندي ذاته رغم الاضطهادات التي لحقت ببلاده قال يومًا : « ان « اللاتضامن » الذي ادعو اليه ليس هو عداء للغرب بل لتلك الثقافة المادية التي تستثمر الضعيف . . . واني اترك ساحة الجهاد اذا شعرت بان هناك بغضاً للانكليز : فلنبغض كل ما هو شيطاني ولنحب الشيطان . »

هي هذه الناحية الخفية الواسعة من نفس غاندي يجتمع فيها بطاغور الوسيع القلب ، حين يهتف :

« انا لا اريد ان احصر بيتي من جهاته الاربع ولا ان توصد نوافذه . اريد ان تسري انفاس ثقافات كل الامم بحرية في مسكني ولكني لن ادع تيارها يجرفني . والدين الذي اعتنقه لا اريده سجناً ، بل امهد فيه مقرًا لادنى خلائق الله . فانا لا اغلقه الا بوجه حماقة الكبرياء العرقية والدينية واللونية العنيفة . »

تحت كلمات كهذه يجتمع تلك الرجلين العظيمين . ولكن الغرب لم يفهم هذه الناحية المقدسة العابدة الكبيرة من نفس غاندي ، بل هاله ما في تلك النفس من تجردٍ وتنوتٍ وقهر ذاتٍ وحرمان قوتٍ على الجسد الناحل.

والغرب احب طاغور اكثر لانه شعر بشيء فيه من « ليوناردو دي فنشي » و«غوته» . اذ ان طاغور قد احب المعرفة والعلوم ولم يستعبده علم او معرفة بل رفرف عليهما بجناحيه الطليقين . وهكذا اجتمعت فيه العبقريتان : إلهام الشرق وحدسه الصادق ، وتواكل الغرب على سلطان المعرفة وقدرتها النهائية اللانهائية .

في سلم حياة الهند الصاعدة رجلان : غاندي في اسفله يماشي الناس ويواكلهم ويعايشهم ليقنعهم بعدم الأركان الى الخمول وليرفعهم معه ، وطاغور في اعلى السلم يدلهم على الهدف الذي يجب ان يسعوا اليه . غاندي وطاغور يدان تتعاونان في خدمة الانسان ولا تفضل الواحدة الاخرى .

اذا كان عالم اليوم لم يشاهد رجلاً اكثر تضحية واعمق محبة وتجرداً من غاندي ، فانه لم يشاهد ايضاً رجلاً ارحب نفساً واشمل ذكاء من طاغور . أن يكون في النصف الاول من القرن العشرين مثل غاندي وطاغور ، فذلك ما يجعلنا نؤمن بان النصف الثاني من جيلنا سيبلغ موطن السلام ولن يُهلك البغض ابناءه ، ذلك البغض المورث التلاشي والاضمحلال ! . . .

*

سرّ الفرح

في هذا العالم حيث تتلاقى الانانيات فتتلاطم وتتنافر الارادات ويتضعضع اساس الايمان بالحقائق السامية ، تتصاعد كلمات الشاعر صرخةً ضد حقيقة لا تستقر بغير المادة ، ومعرفة لا ترى لها مصدراً غير عقلٍ باردٍ جاف . اما الشاعر فهو ابن العلاقات الازلية ، يحس بان عقله شعلة من اضطرام المعرفة الاولى المبدعة للكل نظاماً وحدوداً ، ويحس بان حقيقته هي في تلك العلاقة التي تمتد كالجسر الغير المنظور بين الارض والسماء ، والتي لا يمكنه رفضها . فاذا ما تطلّع الشاعر الى الارض ورأى جمالها وقبحها ، ورأى اوديتها وقممها ، ورأى

آلامها وافراحها المتجسدة ، لا يستطيع ان يظل جامدًا ؛ فان هذا الجمال وهذا القبح ، وهذه الآلام والافراح ، وهذه الاودية والقمم ، هي كلها صورته ، صورته في ظروفها المتنوعة ظاهرًا ، ولكنها الموحدة بالنظام المستر الذي شاءه الله .

وكلما جلس الشاعر الى الطبيعة ، على تنوعه سؤالان : يستفسرها عن نفسه ، وعن سر خضوعها لله . فهو دائمًا يقف على بابها مستعطيًا منتظرًا :

« ألم تسمع وقع اقدامه المرساء ؟ انه آتٍ آتٍ آتٍ ابدًا !
في كل ثانيةٍ وزمن ، في كل صباحٍ وليل ، .
في ليالي تموزٍ العاصفة السوداء ، على مركبةٍ من الغيوم ،
هو آتٍ آتٍ آتٍ ابدًا !
تضغط خطواته على قلبي فتتدافع في قلبي النغوم ،
وتلامسني قدماه ، فاطير من فرحٍ ونشوة ! »

هو ذلك الفرح الكبير يحس به الشاعر في تعرّفه الى حقيقة ذاته المتصلة بالله . وقد ينغّص ذلك الفرح عليه كل رفضٍ وجمودٍ وبخل :

« ان في قلبي حسرة . فهو ينوء بثقل الخيرات التي لم يقدمها لك . . .
« وبكيت بكاءً مرًّا وقلت في نفسي : ليت قلبي اعطاك كل ما له ! »

ولكنها فترات حزنٍ عابر في نفس الشاعر ، اذ انه يعودٍ حالًا الى الاحساس بذلك الوصال الحاضر ، الذي هو صورة الوصال الابدي المزمع ، وتعود النبطة الاولى مغنيةً تلك الالحان الموزونة المتآخية ، مترغمةً بالاناشيد الجبارة المكبوتة في احشاء الدهور منذ وُلدت الانسانية الى ان تفنى في جوف الارض ، اهراء الحياة الصامتة الخفقات التي لن تتلاشى الى ابد الآباد !

كذا يبقى الانسان لان جوعه الى اللانهاية لا نهاية له الا بالاستقرار في حضن الله .

وهذا هو سرّ فرحنا الجبّار ! . . .

غيوم وامواج

— لطاغور —

اماه ، هؤلاء الذين يعيشون فوق السحب نادوني قائلين :« اننا نلعب من الصباح حتى المساء . اننا نلعب مع الفجر الذهبي ، والقمر الفضي . »

سألتهم :« ولكن كيف استطيع ان اصعد اليكم ؟ »

فاجابوني :« تعالَ الى حافة الارض ، وامدد يديك الى السماء. وسوف تُحمل عالياً الى السحب . »

قلت :« ان امي تنتظرني في المنزل فكيف استطيع ان أتركها وأصعد اليكم ؟ » عندئذ ضحكوا وسبحوا في الفضاء البعيد ...

ولكني أعرف لعبةً أبدع وأجمل من العابهم يا اماه !

سأكون السحب وتكونين أنتِ القمر .

سوف اغطي وجهك بيديَّ وستكون السماء الزرقاء قمة منزلنا ...

*

وهؤلاء الذين يعيشون في الامواج نادوني :

«نحن نغني من الصباح حتى المساء..نحن نسافر بعيداً ولا نعلم الى اين نسير.»

سألتهم: « ولكن كيف أستطيع أن انضم اليكم ؟ »

اجابوني :« تعالَ الى حافة الشاطئ ، وقف معصوب العينين ، فتُحمل عند ذاك على متن الامواج . »

قلت لهم :« ان امي تنتظرني دائماً في المساء . فكيف اتركها وامضي معكم ؟ » عندئذٍ ضحكوا ورقصوا ومضوا بعيداً .

ولكني اعرف لعبةً اروع من العابهم يا اماه !

سأكون الامواج وتكونين انتِ الشاطئ .

فامضي وأرحل رحلاتٍ بعيدة ، ثم اعود فانفجر ضاحكاً بين احضانك ولن يعرف انسانٌ في العالم اين نحن ! ...

زهرة « اللوتس »

ماتت زهور « اللوتس » لقسوة الصقيع ولم يبقَ غير زهرة وحيدة في حديقة « سوداس » البستاني .

لقد ذهب الى القصر ليبيع زهرته الوحيدة وهناك رأى تاجراً مثرياً اعجب بها .

« ساشتري زهرتك لاقدمها الى الاله بوذا »

اما « سوداس » فطلب قطعةً من الذهب ثمناً لها .

وبينما التاجر يتردد في دفع الثمن ، خرج الملك من قصره في طريقه الى المعبد ، ولمح الزهرة البيضاء في يد البستاني فدهش وقال : « ساشتريها من اجل بوذا . فكم ثمنها ؟

اجاب البستاني : « لقد بيعت يا مولاي بقطعةٍ من الذهب . »

فقال الملك : « اني ادفع عشر قطع ذهبية ثمناً لها . »

وقال التاجر : « انا ادفع عشرين قطعة . »

واشتدت المنافسة بين الملك والتاجر من اجل الحصول على الزهرة ، وتصاعد الثمن .

أصغى البستاني ثم قال في نفسه : « انهم يطلبون الزهرة من أجل الاله بوذا . فاي ثمنٍ نفيس احصل عليه من الاله نفسه مقابلها ؟ »

« عفواً ايها السادة ، لن ابيعها . » وانبسطت يداه في توسل ورجاء ثم اسرع الى حيث يجلس بوذا في سلام يظلله وشاح الالوهة .

رآه البستاني على هذه الصورة ، فوقف مبهوتاً لا يساعفه لسانه ولا يستطيع حراكاً . ثم القى بنفسه على اقدام مولاه وقدم اليه الزهرة .

انبسطت اسارير بوذا وقال : « ما امنيتك ؟ »

فاجابه البستاني في لهفةٍ وحرارة :

« لا شيء سوى قبضةٍ من تراب قدميك ! »

النهاية

آن وقت الرحيل يا اماه وها انا ذاهب !

وعندما تمدين يدك في شحوب الليل والفجر يبدد ظلمته تتلمسين طفلك في سريره ، ساقول لك :

« الطفل ليس هنا . . . » انا ذاهب يا اماه !

ساصير هبة نسيم ناعمة اعانقك وادلك ، وساكون سقسقة الماء عندما تستحمين واقبلك مرات ومرات .

وفي الليل العاصف الممطر عندما يتساقط المطر على الورقات ، ستسمعين في سريرك همساتي وستمزج ضحكاتي بالبرق الخاطف المتلألئ داخل حجرتك المفتوحة النوافذ .

واذا اضطجعت يقظى تفكرين في طفلك الى ساعة متأخرة من الليل ، فسوف اغني لك من النجوم قائلا :

« نامي يا اماه نامي ! . . . »

وسانسل الى سريرك في اشعة القمر الشاردة واغفو على صدرك يا امي وانت غارقة في عالم الكرى .

وساصبح حلماً انزلق بين جفنيك ، وعندما تستيقظين ، وتنظرين حولك مذعورة ، سوف امرق كومضة خاطفة واغيب تحت سدول الظلام.

وعندما يأتي الاطفال المجاورون في عيد « يوجا » الكبير ، ويلعبون حول منزلنا ، عندئذ ساذوب في نغمات المزامير وانبض طول النهار في قلبك المحموم.

وعندما تأتي عمتي حاملة هدايا العيد وتسألك : « اين طفلنا يا اختاه ؟ » ستجيبينها يا امي بعذوبة ناعمة :

« انه في سواد العين
انه في دمائي
انه في روحي ! . . . »